باكليل من الذهب عنواناً على احترامهِ لهُ وتذكاراً لزيارتهِ قبرهُ . وفي غضون تلك المدة جرى لي حديث مع احد افاضل الافرنج فقال لو كان قبر صلاح الدين في بلادنا لصيغ بالاحجار الكريمة وقيمت لهُ التماثيل والهياكل وبنيت على اسمهِ المعابد والمدارس وسمت بهِ الشوارع والساحات . فقلت لهُ ان الاسلام لا يسمح باقامة القبور على هذا النحو ولا يبيح وضع التماثيل والنصب للاحياء ولا للاموات ولكن احباب صلاح الدين يقنعون ولو بالمحافظة على قبرهِ بسيطاً غير مزخرف ثم سردت عليهِ ما كان ينويهِ القائمون على ضريحهِ من تغطية اثره عرضاً او عمداً فأخذ منهُ العجب

هذا ما وصل اليهِ العلم القاصر من حال الاوقاف العامة والخاصة وقد حذت الدولة العلية حذو الممالك المتمدنة في ضبط الاوقاف على امل تعميرها . وللاوقاف بمصر طريقة حسنة فان نظارتها تتعهد باصلاح الاوقاف الاهلية من خزانتها ثم ترجع الى العقار تستوفي ما اسلفتهُ اياهُ من ايرادهِ على ان الخراب لم يبرح منتشراً في معظم العقارات الموقوفة على اختلاف ضروبها . واذا كانت الاوقاف احدى علل التقهقر في المشرق كان على الباحثين في علم الاجتماع ان يفيضوا في هذا البحث والمريض اذا برّحت بهِ العلة يتوقع من طبيبهِ شفاءً عاجلاً او آجلاً والامم اذا انزل بها الهرم يبحث أساتها في عللهِ وكذلك يفعلون

بحّاث دمشقي

ظاهر العمر

(تابع ما قبلهُ)

كان بين عثمان باشا والي الشام وبين علي بك والي مصر منافرة واحقاد ناهيك ان عليًّا لما رسخت قدمهُ في مصر حدثتهُ نفسهُ بالتوسع حتى بغداد وكان يتحيَّن الفرص لذلك فارسل ظاهر العمر اليهِ بالهدايا واستنجدهُ على والي الشام ووعدهُ انهُ اذا ظفروا بهِ كان ظاهر برجالهِ في خدمة علي بك كيف شاء

وكانت الدولة العلية في ايّان ذلك تحارب الدولة الروسية لعهد القيصرة كاترينا فراسلها علي بك وحبَّب اليها ارسال بضعة سفنٍ من اسطولها مشحونةً بالرجال وهو يمكنهم من الاستيلاء على الثغور الشامية

فلما جاءته رسالة الشيخ ظاهر سرّ بها جداً وللحال جهّز عشرة آلاف فارس وعقد عليهم لاسماعيل بك الكبير واردفهُ بستة امراء من السناجق وجعلهم تحت امرته وامر الجميع ان يطيعوا الشيخ ظاهر واكثر لجيشهِ من المؤن والذخيرة فخرجوا واتوا غزة وكان عثمان باشا والي الشام في القدس يجمع اموالها فارسل يسألهم عن خبرهم فلم يجيبوهُ بشيء فاوجس منهم شرًّا وارتحل الى دمشق اما الشيخ ظاهر فارسل اولادهُ للقاء الغزاة فساروا بهم في موكب جليل الى عكاء حيث التقاهم ظاهر بالاعزاز والاكرام

واما عثمان باشا فانهُ تجهّز بعد رجوعهِ للذهاب الى الحج الشريف حتى اذا دنا وقت ذهابهِ برزت العساكر المصريَّة وجماعة ظاهر العمر من عكاء وعدتهم جميعاً نحو عشرين الفاً وقصدوا المزيريب

وكان اسماعيل بك قد رأى من خشونة اولاد ظاهر العمر ما ساءهُ فتلكأ عن اتمام العمل المعهود اليهِ من علي بك حتى اذا سألهُ ظاهر ان يقصد دمشق ابى وقال لا يجوز ان نقاتل زوار بيت الله وانما نرسل الى عثمان باشا ان يبرز الينا بعسكرهِ لانهُ هو المطلوب فلما راسلوهُ اجابهم اني عازمٌ على الحج ولست لا تأخر عن ذلك فان كنتم تريدون حرب رجال الله فقد استعنا عليكم بهِ فاجاب اسماعيل حاشا لله ان نقاتل زوّار بيتهِ ونقع تحت غضبهِ فلما رأى ظاهر امتناعهُ لوى الاعنة وعاد ادراجهُ صوب يافا وفي اثرهِ العسكر المصري وكتب بما وقع لعلي بك شاكياً ما فعلهُ قائد عسكرهِ وملتمساً استبدالهُ فاستاء علي بك من ذلك وجهّز فريقاً آخر من جندهِ وعقد اللواء على البعثة لرجلهِ المشهور محمد بك ابي الذهب وسيَّرهُ في بدء سنة ١١٨٤ فلما وصل الى غزة التقاه اسماعيل بك ومن معهُ من السناجق والشيخ ظاهر وحلفاؤهُ من المتاولة وغيرهم حتى بلغ عدد الجيش ستين الفاً او يزيدون فزحف ابو الذهب بهم صوب دمشق وقد عاد واليها من الحج وعلم بمسير ابي الذهب اليهِ فارتاع ولكنهُ تجلَّد وباشر الاهبة لدفع الطارئة حتى اذا جاءت العساكر ونزلت بداريا الكبرى من ارباض دمشق برزت للقائهِ الجنود الشامية وبينهم عبد الرحمن باشا والي حلب وخليل باشا والي كلّس ومحمد باشا والي طرابلس الذين امرتهم الدولة العلية بنجدة عثمان باشا وذلك ان عثمان باشا لما علم بما كان من بعثة علي بك ومراسلتهِ بعض اعيان الشام في طلب تسليم البلد اليهِ كتب الى باب الدولة فصدر امرها للولاة المذكورين بمساعدتهِ

فلما تلاقى الجيشان في سهل داريا انقعا ساعةً فانكسر العسكر الشامي وفرَّ كل من خليل باشا وعبد الرحمن باشا هاربًا بعسكرهِ بعد ان قُتل منهم شرذمة ولكن ثبت عثمان باشا وابنهُ

محمد باشا والي طرابلس ودام قتالهما بالعسكر الشامي والطرابلسي ثلاثة ايام الاَّ ان كثرة العدو غلبت شجاعتهما فهربا لا يلويان على شيء فاحاطت العساكر المصرية واحلافها بدمشق ثم بعث اليهم ابو الذهب بكتاب كان معهُ من علي بك يستدعيهم فيهِ لتخلف عن عثمان باشا لظلمهِ وغشهِ ويلزمهم التسليم فلما وصلهم الكتاب خرج بعض الاعيان الى ابي الذهب فدعاهم الى تسليم المدينة وتوعدهم ان هم تمنعوا بالاستيلاء عليها عنوةً وحرقها واسر اهاليها فاستمهلوهُ الى اليوم التالي وفي تلك الليلة فرَّ عثمان باشا وابنهُ مع كثيرٍ من الاعيان والجند حتى خلت دمشق من الحامية وارتاع الاهلون لذلك وازدحموا في الجامع الاموي حيث كان قد اجتمع اهل القرى المجاورة بمالهم وهاج الاهلون وماجوا اذ خافوا على انفسهم وما يملكون وسألوا العلماء والاعيان ان يسلموا المدينة فسلموا بان خرج منهم نفرٌ الى ابي الذهب وسألوهُ الامان فدخل المدينة وجلس في دار الوزارة

وبعد ايام كتب ابو الذهب الى اهل دمشق يقول اننا جئنا الشام في طلب عثمان باشا فلو خرج الينا لما مسسناكم بسوء ثم ظننا انهُ في القلعة فلما تحققنا انهُ ليس فيها وليس لنا بضرتكم ارب لاسيما وان المدينة لمولانا السلطان فرفعنا القتال عنكم فادعوا لمولانا السلطان واذكرونا بالخير ثم رحل عن دمشق ورحلت على اثرهِ عساكر ظاهر العمر واحلافهُ وفي صدورهم على فعلة ابي الذهب حزازات ودخل ابو الذهب مصر واعتذر الى علي بك عن عودتهِ بشكاسة اخلاق ظاهر وعشيرتهِ وقال انهم قوم لا يعرفون الوفاء ولا يشكرون الجميل وانهم كانوا كلما ظفروا منا برجلٍ قتلوهُ واخذوا اسلابهُ فخشينا العطب ورأينا انا قد فزنا بطرد عثمان واخرجناهُ من الشام فرجعنا ادراجنا فلما سمع الامير علي ذلك كاد يتميَّز من الغيظ فكتب الى الشيخ ظاهر يلومهُ فاجابهُ بتكذيب مقال ابي الذهب وسألهُ ان يأمر باستكتاب اسماء القتلى من عسكرهِ ليرى في الامر وقال لهُ ان ابا الذهب تيسَّر لهُ امتلاك البلاد غنيمةً باردة ولكنهُ دان لرأي اسماعيل بك في عدم الخروج على السلطان لان في ذلك مساساً بالدين وان ابا الذهب تمنَّع في بادىء الامر عن قبول هذا الكلام من اسماعيل بك ولكنهُ عاد فاقتنع اذ ان امين الصرة ساعد على اقناعهِ ووعدهُ ان عاد ادراجهُ بالحصول على رضا الدولة والانعام عليهِ باحدى ولاياتها وقال لهُ انهُ مرسل ابنهُ عثمان رهناً على صدق كلامهِ فان وجد في مقال ابي الذهب ذرةً من الصدق فدم ابنهِ مباحٌ لهُ واحتال ظاهر على ابنهِ فحملهُ على الذهاب الى مصر وهو لا يدري بما كتب ابوهُ فلما وصل جواب ظاهر الى علي بك لخص القضية فعلم صدق مقال ظاهر فوقعت الشحناء بينهُ وبين ابي الذهب وفرَّ هذا من وجههِ الى الصعيد فالتفَّ عليهِ جمهور

من اصحابهِ فارسل علي بك اليهِ عسكرًا مع اسماعيل بك فانحاز اليهِ وكان عثمان باشا قد رجع الى دمشق وجمع عسكرًا جرارًا وبرز الى الحولة يريد غزو ظاهر العمر والمتاولة فلما علموا جمعوا رجالهم وبيّتوا الباشا فما افاق رجالهُ الاَّ والاعداء محيطة بهم من كل جانب وقد الهبوهم بضرب السيف والنار فذعروا وتشتتوا وولوا الادبار والقوم يضربون في اقفيتهم تحت جنح الليل حتى بلغوا شاطئ البحيرة فالقى كثيرون منهم انفسهم في الماء نجاةً من المنية ففروا اليها وفرَّ عثمان باشا بنفرٍ من رجالهِ فغنم الظافرون اسلابهم وعادوا فكتب ظاهر بذلك مبشرًا علي بك الاَّ ان هذا كان قد راعهُ انضمام بعثتهِ الى ابي الذهب واخبار زحفهِ عليهِ بمن اجتمع اليهِ فخرج من مصر هاربًا بسريتهِ من فرسانهِ وما عندهُ من الاموال والذخائر قاصدًا حمى ظاهر العمر مستصحبًا معهُ الشيخ عثمان الظاهر فلما بلغ الديار الشامية التقاهُ ظاهر بالتجلة والاكرام وذهب بهِ الى عكاء فكتب منها الى الدولة الروسية يطلب المدد البحري الذي كان قد سألهُ من قبل وتعهد بتسليمها الثغور من مصر الى صيداء فتستطيع حينئذٍ ان تمدَّ فتوحاتها ما شاءت واقتدرت فوافقتهُ ظاهر العمر على هذا الطلب والوعد

وكان على ولاية صيداء ابنٌ آخر لعثمان باشا اسمهُ درويش باشا فهذا كان جبانًا وقد راعهُ قرب المتاولة منهُ ففرَّ من صيداء الى دمشق وحاول الامير يوسف الشهابي ان يشدّد عزائمهُ فما استطاع ولذلك طمع المتاولة فيهِ وفي بلاد الشوف ومرج عيون والحولة فاستاء الامير يوسف وتجهّز عليهم بعشرين الفًا من المقاتلة فاكتسح بلادهم واحرق منها حتى جباع حيث وردهُ كتاب منهم عن يد ابن ظاهر يسألونهُ الصلح ويتعهدون بالبقاء على خاطرهِ فلما استشار الذين معهُ في ذلك اشار عليهِ عبد السلام العماد بحربهم وانما قصد ذلك ليتكسر الامير يوسف ويعود خائبًا فتعلو منزلة صديقهِ الامير منصور فلَّم الامير يوسف لرأيهِ فكتب عبد السلام الى المتاولة يشدّد عزائمهم ويعدهم بالانهزام فكان كما قال وارتدَّ الامير يوسف منكسرًا وخرج الدروز الذين كانوا على خفارة صيداء فارسل اليها ظاهر العمر متسلمًا من قبلهِ كان رئيسًا للخفارة الذين في خدمتهِ يقال لهُ احمد اغا الدنكربي

وتوفي عثمان باشا والي الشام وخلفهُ على الولاية عثمان باشا المصري الذي كان سردار العساكر في عرب استان وتجهز للاغارة على المتاولة وكتب بذلك الى الامير يوسف الشهابي وزحف بجيشٍ عدتهُ عشرون الفًا فيهم احمد بك الجزار الذي نال بعد ذلك الشهرة الذائعة في سوريا وبلغوا صيداء وحصروها حتى ضايقوا حاميتها وكاد احمد اغا يسلمها لو لم يكن قد تراجع اكثر عسكر الامير يوسف الى بلادهِ وجاء الخبر بمجيء السفن الروسية الى عكاء وكانت خمسة

من الطرز الكبير المسمى يومئذٍ غليون يصحبها قطع عدة من صغيرات الحجم فاوعز اليها ظاهر العمر ان تقلع الى صيداء فلما وصلتها شرعت تضرب القنابل على عسكر الامير يوسف فرحلوا عن مواقفهم الى حارة صيداء وفي خلال ذلك كتب ظاهر العمر الى الامير ان يقوم الى جسر صيداء للاجتماع والاتفاق والاَّ فهو آتٍ اليهِ فلم يرضَ بذلك فنهضت عساكر ظاهر ومن جاء مع علي بك من مصر حتى بلغت ضواحي صيداء وهناك وقع القتال فاسفر عن انكسار عسكر الوالي والامير يوسف وانهزامهم واما السفن الروسية فانها ذهبت من صيداء الى بيروت وفتحتها وظلت في مياهها حتى ادّاها الامير يوسف مالاً عنها وكتب الى والي الشام فارسل الى محافظ بيروت نائبهُ محمد اغا ومعهُ احمد بك الجزار وبعض المغاربة

ثم وقع الخلاف بين الامير يوسف والجزار على امتلاك بيروت الامير فاتفق يوسف مع عمهِ الامير منصور وكتب الامير منصور الى ظاهر العمر يسألهُ استحضار السفن الروسية لاستخلاص بيروت من يد الجزار فاجابهُ ظاهر الى ذلك وامتدعى السفن المذكورة فجاءت واتفقت مع الاميرين على ثلثمئة الف درهم واسترهنت لوفائها الامير موسى بن الامير منصور واطلقت السفن النار على المدينة حتى تضايق الجزار فطلب التسليم عن يد ظاهر العمر ايضاً فارسل ظاهر رجلاً من اخصائهِ يقال لهُ يعقوب الصيقلي فجاء بالجزار الى عكاء واقام هذا بها ايلماً حتى سنحت لهُ الفرصة فسرق بعض بغال للشيخ ظاهر وفرَّ بها هارباً بل قيل ان ظاهراً ارسلهُ لجباية الاموال السلطانية فجمع منها شيئاً وفرَّ

هذه زبدة رواية الامير حيدر الشهابي في تاريخهِ الاَّ انا رأينا في تضاعيفها مواضع تحتاج الى التمحيص منها تاريخهُ بدء تحالف ظاهر العمر وعلي بك سنة ١١٨٣ والعهد بالامارة على الجيش المصري لابي الذهب سنة ١١٨٣ مع ان المرادي يذكر زحف ابي الذهب سنة ١١٨٥ ويوافقهُ على ذلك ڤولناي بقولهِ ان علي بك انفذ السريَّة الاولى سنة ١٧٧٠ م والثانية سنة ١٧٧١ م ومنها ان ظاهراً وعلي بك هما اللذان خابرا الدولة الروسية لارسال اسطولها الى الثغور الشامية مع ان عبارة ڤولناي تدل على ان الاسطول المذكور كان في البحر المتوسط فلما علم بثورة ظاهر على الدولة جاء ميناء حيفا لاخذ المؤونة منها حين كانت جنود والي الشام واحلافهُ تحاصر صيداء فاستأجرها ظاهر بستمئة كيس لاسعافهِ على رفع الحصار فكان منها ما كان وهذه الرواية اقرب الى الواقع لانهُ لو كانت الدولة الروسية تقصد نجدة العصاة على الدولة لما اقتضى اسطولها منهم اجرة عملهِ والحال انا رأينا الاسطول يتقاضى الاجور في كل حركة يبديها بايعاز ظاهر . ومنها ان عثمان باشا المصري كان قد تعيَّن والياً على الشام مع انهُ يظهر

من امراء ولاة الشام المدرجة في سلنامة ولاية سورية ان صادق عثمان باشا تولّى من سنة ١١٧٤ الى سنة ١١٨٤ وخلفهُ محمد باشا العظم وليس عثمان باشا المصري

ومما روى قولناي من اعمال ظاهر ان بعضًا من المخلصين في طاعة الدولة العلية في يافا ونابلس تململوا من طاعتهِ حين بلغهم ان نصيرهُ علي بك المصري هارب من وجه ابي الذهب وقادم اليهِ وان عساكر الدولة تحتشد في حلب للزحف عليهِ وشاع هذا القول بين القوم حتى حسبوا ان ظاهرًا لا يبرح عكاء خوفًا عليها وفيما هم يظنون كذلك خرج ظاهر برجالهِ صوب نابلس فلقي الخارجين عليهِ فيها وضربهم ونكّل بهم واقرّ الامور في نصابها ثم سار من هنالك فالتقى بعلي بك وجاء بهِ آمنًا الى عكاء اما يافا فانهُ اهملها حتى قضى امر صيداء فعاد اليها في صحبة علي بك واحطّ عليها فحُصرت حصارًا شديدًا سنة ١٧٧٢ ثم عاد الى عكاء يدبر شؤونها تاركًا علي بك على امرة الحاصرين فظلّ عليها ثمانية شهور الى سنة ١٧٧٣ حين ملكها ونظّم شؤونها وجعل عليها متسلمًا يحكمها باسم ظاهر العمر ثم عاد عنها الى عكاء

وحدث في خلال ذلك ان ابا الذهب احتال على علي بك بان دسّ اليهِ ان يعود الى مصر فيلقى خيرًا فاغترّ علي بك بذلك وسعى الى الرجوع في كل سبيل وكان الروس قد وعدوهُ بالنجدة فما لبث حتى تجيء اليهِ الشرذمة التي ارصدوها لمرافقتهِ بل الحّ على ظاهر بالذهاب فارسل معهُ الفًا وخمسمائة من فرسانهِ تحت امرة ابنهِ عثمان فلما وصلوا بهِ الى غزة غدر بعلي بك فقُتل مع جماعةٍ من رجالهِ وفرّ الباقون فأسقط ظاهر في يدهِ لمصرع حليفهِ القوي وحاك ذلك في نفسهِ ولكن ما لبث ان فرجت كربتهُ بما رويناهُ من التجاء الامير يوسف الشهابي الى معونتهِ على اخذ بيروت من الجزار

وكأني بالدولة العليّة رأت انها اذا عفت عن ظاهر العمر عاد الى طاعتها فاراح ولاتها من حربهِ ولهذا كتب عثمان باشا الى الامير يوسف الشهابي يعالنهُ بصدور الامر السلطاني بالعفو عن ظاهر اجابةً لاسترحام الوالي وان الدولة العلية قد انعمت عليهِ فوق ذلك بولاية صيداء على وجه المالكان على ان يؤدي خمسمائة الف درهم عن بقايا المال المتراكم عليهِ ومئتي الف مسانهة عداء عن خدمة الجردة . فعظم وقع هذا الخبر على الامير يوسف لما فيهِ من الامر بطاعة ظاهر العمر ولكنهُ لم يبدِ اعتراضًا على مؤادهُ حرصًا على مودتهِ

وفي سنة ١١٨٨ ورد الفرمان العالي صحبة قبجي من باب الدولة مؤذنًا باحالة ولاية صيداء لعهدة الشيخ ظاهر فطابت نفسهُ بهذه الولاية لثبوت حكمهِ على صيداء وعكاء وحيفا ويافا والرملة وجبل نابلس وبلاد اربد وصفد والمتاولة ولان رسوخ قدمهِ في حكمها كان من اماني نفسهِ

غير ان في خلال ذلك عرض ابو الذهب لباب الدولة عمَّا يعلم من امر ظاهر العمر وعلي بك وافشى اسرارها واستأذن الدولة العلية في الحملة على الشام وكبت ظاهر وقومهِ فوقعت عريضة ابي الذهب من الدولة موقع القبول سيما لان العفو عن ظاهر كان في عهد السلطان مصطفى فلما توفي الى رحمة ربهِ وتبرأ الاريكة اخوهُ السلطان عبد الحميد الاول اجاز لابي الذهب الحملة على الشام للاقتصاص من ظاهر العمر جزاء اتفاقهِ مع علي بك وخروجهما على الدولة

جرجي بني

الراديوم ومزاياهُ

اشرنا في باب الاخبار العلمية في الجزء الماضي الى خطبة السر وليم كروكس التي تلاها في الجمعية الملكية ببلاد الانكليز واظهر فيها بعض مزايا الراديوم . وقد رأينا ان نلخص تلك الخطبة الآن لانهُ سيكون لهذا العنصر شأن كبير بين مكتشفات القرن العشرين فيليق بقراء المقتطف ان لا تفوتهم فائدة نتعلَّق بهِ . قال الخطيب :

جُفِّف قليل من مذوَّب ملح الراديوم (النيترات) وترك حتى تبلور ووُضع في غرفة مظلمة فانار بنور ضعيف . ثم أُدني من لوح مدهون بيلاتينوسيانيد الباريوم فانار اللوح بنور باهر ضارب الى الخضرة وكان نورهُ يزيد بتقريب الملح منهُ ويقلُّ بتبعيدهِ عنهُ الى ان يزول تمامًا . ويحدث مثل ذلك اذا أُدني ملح الراديوم من لوح مدهون بكبريتيد التوتيا ويبقى النور على اللوح مدةً بعد ابعاد الملح عنهُ . والآنية التي وضع فيها ملح الراديوم ثم أُخرج منها اذا أُدنيت من لوح مدهون بيلاتينوسيانيد الباريوم او بكبريتيد التوتيا تجعلهُ ينير ولو كانت قد غُسلت جيدًا بعد اخراج الراديوم منها (كأنهُ يبقى فيها منهُ شيء قليل جدًّا لا يزول بالغسل وهو كافٍ لينعل فعل الراديوم باللوح) . واللوح المدهون بكبريتيد التوتيا ينير اذا خُمِّش بكين او ضُرب برأسها او برأس قلم كأنهُ مدهون بمادة فصفورية

واذا أُدني حجر ماس من ملح الراديوم انار نورًا ضاربًا الى الخضرة والزرقة واذا أُبعد عن الملح انطفأ نورهُ حالاً لكنهُ اذا وُضع حينئذٍ على اللوح المار ذكرهُ يبقى على اللوح هنيهةً بعد ابعاد الماس عنهُ . واتفق ان حجر الماس لمس ملح الراديوم ثم وُضع على اللوح فتطاير الشرر من اللوح . ونُظر الى الشرر بالميكرسكوب في غرفة مظلمة فاذا في كل شرارة مركز مظلم وحولهُ هالة منيرة وينبعث من المركز المظلم اشعَّة منيرة تنتشر في كل الجهات فيظهر في اللوح حول